سلسلة فرسان الإسلام

٥

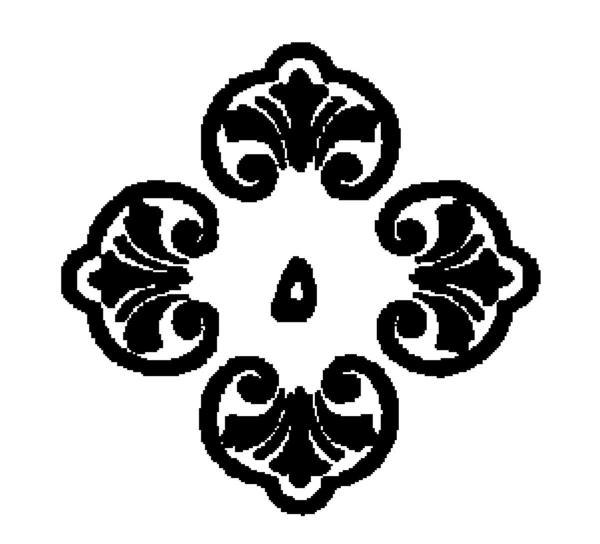
فاتح المشرق

قتيبة بن مسلم الباهلي

خالد محمد خلاوي

مكتبة العبيكان

سلسلة فرسان الإسلام



فاتح المشرق
قتيبة بن مسلم الباهلي

بقلم

خالد محمد خلاوي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

فاتح المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي .- الرياض.

٣٣ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة فرسان الإسلام؛٥)

ردمك: ٨ - ٩٢٨ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- قتيبة بن مسلم ٢- الفتوحات الإسلامية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣,٠٣٥ ٢٢/٠٩٦٢

ردمك: ٨ - ٩٢٨ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

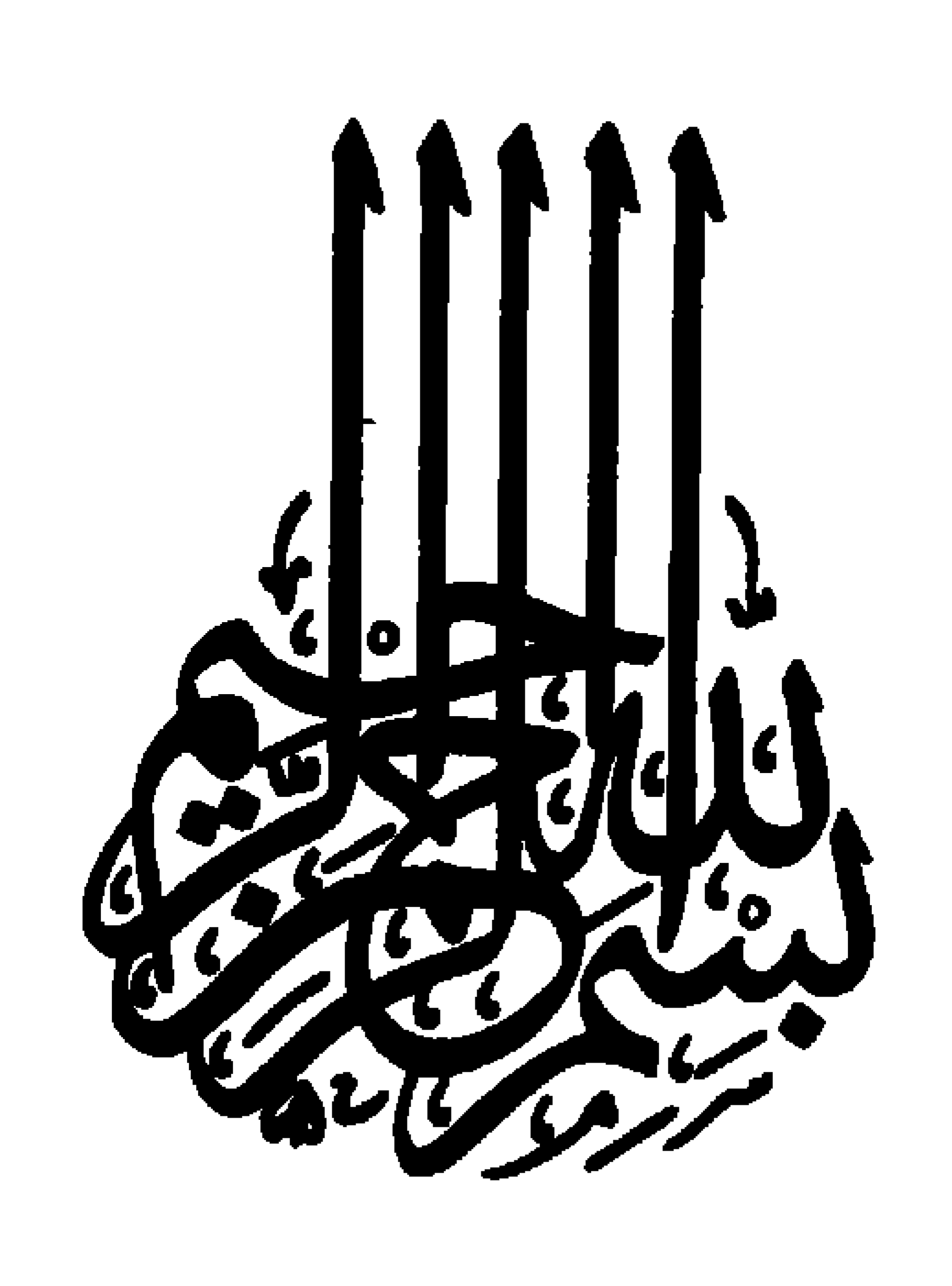
الناشــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

«بعثت قتيبة فتى غزَّاء فما زدته باعًا إِلا زادني ذراعًا»[1]

الحجاج بن يوسف.

---

(١) غزَّاء: أي كثير الغزو.

بطاقة تعارف

الاسم بالكامل: قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو بن الحصن بن ربيعة بن خالد.. الباهلي..

مولده: ولد قتيبة سنة (٤٩هـ)..

مكانته في الإسلام:

- فارس من فرسان الإسلام المعدودين.
- قام بفتح ممالك بلاد ما وراء النهر خلال عشر سنوات.
- وامتدت فتوحاته إلى حدود الصين وفرض على ملكها الجزية.
- أرسى قواعد الحضارة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر وخاصة في بخارى وسمرقند.
- شهد له الأعداء قبل الأصدقاء بعبقريته في القيادة والإدارة.

ومع فاتح المشرق نطالع صفحات من حياته لنشاهد صوراً من فتوحاته ومواقف من حياته.

آل قتيبة

يُنسب قتيبة بن مسلم إلى قبيلة باهلة، وكان والده مسلم بن عمرو مقربًا من يزيد بن معاوية، فولد قتيبة ونشأ في رعاية الدولة الأموية..

ولما كبر قتيبة انضم إلى قوات الحجاج بن يوسف، وقد أعجب به الحجاج وبمهارته في الجندية والقيادة فرشحه لدى عبدالملك لولاية الريٍّ وخراسان، واستمر في ولايتهما أيام ولده الوليد بن عبدالملك، وفي عهد الوليد تمت فتوحات قتيبة في المشرق..

وقد رشح الحجاج قتيبة بن مسلم لفتوح المشرق بعد نجاحه في القضاء على تمرد عبدالرحمن بن الأشعث.. ومن يومها انطلق قتيبة في ممالك الشرق.

وقد أدرك الحجاج حسن اختياره لقتيبة ليخلف البطل المجاهد المهلب بن أبي صفرة، فقال الحجاج عن قتيبة:

«بعثت قتيبة فتى غزّاء فما زدته باعًا إلا وزادني ذراعًا»

فتوح المشرق

* بلاد ما وراء النهر.
* فتح بيكند.
* على أبواب بخارى.
* فتح سمرقند.

بلاد ما وراء النهر

بلاد ما وراء النهر أو ما بين النهرين هي البلاد الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، وتقع في هذه المنطقة عدة ممالك من أهمها:

* طخارستان، وعاصمتها: بلخ.
* صغانيان، وعاصمتها: شومان.
* الصغد، وهي تمتد من جيحون إلى سيحون، وعاصمتها سمرقند، وأهم مدنها بخارى.
* مملكة خوارزم في أعلى نهر سيحون وعاصمتها الجربانية، وسكان هذه الممالك قبائل وثنية تعيش على الرعي والزراعة.

وقد بدأ غزو هذه البلاد في عهد معاوية بن أبي سفيان على يد قيس بن الهيثم، ثم غزاها عدد من قادة المسلمين في العهود التالية لعهد معاوية منهم: أمية بن عبدالله، والمهلب بن أبي صفرة، ويزيد بن المهلب، وكانت محاولات غزو هذه البلاد عبارة عن غارات غير منتظمة يعود بعدها المسلمون إلى قواعد خلف النهر، وكان الهدف من هذه الغارات إضعاف معنويات العدو والإعداد للفتوح الشاملة في المستقبل، وفي بداية عهد

الوليد بن عبدالملك سنة (٨٧هـ) بدأ قتيبة بن مسلم الباهلي فتوحه في بلاد ما وراء النهر، وكان غزوه يتم بخطوات محسوبة ومعارك حاسمة، كما حرص قتيبة على تأسيس قواعد للمجتمع الإسلامي، ونشر الدعوة الإسلامية في هذه البلاد.

فهيًّا نرحل مع قتيبة إلى هذه البلاد وهو يفتحها مدينة .. مدينة..

فتح بيكند

بدأ قتيبة رحلة الفتح من بلاد الترك.. فقد غزاها، وصالح ملكها نيزك على أن يدفع له الجزية، وعلى أن يطلق سراح ما لديه من أسارى المسلمين..

وكثيراً ما كان الترك ينقضون العهود حتى يعود قتيبة فيجبرهم على تجديدها ودفع مزيد من المال..

وفي سنة (٨٧ هـ) غزا قتيبة مدينة بيكند وحاصرها، فطلب أهلها الصلح فوافق قتيبة، وترك فيها حامية، ولكن سرعان ما نقض أهلها الصلح، فعاد إليها قتيبة وحاصر المدينة حصاراً شديداً.

وتجمعت الجيوش التركية لفك الحصار عن المدينة وتحالفوا جميعًا ضد المسلمين، وحاصرت قتيبة وجيشه، وانقطعت أخباره عن الحجاج بن يوسف، وأصبح قتيبة في موقف صعب، ولما رأى معنويات جنده لجأ قتيبة إلى سلاح الإيمان فخطب في جنده، وحضهم على الجهاد في سبيل الله، ثم أخذ يرغبهم في ثوابه، حرصًا على الظفر بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

وهكذا تجدد الإيمان في نفوس الجند..

وبدأت المعركة واشتدت، وثبت جند الإسلام أمام تحالف جيوش العدو، حتى كتب الله لهم النصر وفتحت مدينة بيكند، وغنم المسلمون منها من الأموال والكنوز ما لا يحصيه العد..

وقد أسند قتيبة إلى أحد قواده وهو ابن وألان العدوي مهمة قسمة الغنائم، وكان قتيبة يسميه الأمين بن الأمين.

وقد حدثت واقعة أثبتت لقتيبة حسن اختياره للرجال.

فقد طلب أحد القواد من ابن وألان أن يحفظ له نصيبه من الغنائم فقال له ابن وألان:

ابعث بمالك إلى مكان تعرفه وسوف أرسل لك رجلاً من عندي؛ فادفع إليه المال.

وفي المكان المحدد انتظر رسول ابن وألان القائد صاحب المال ولكنه تأخر عليه، فظن أنه غير رأيه وعدل عن إيداع المال فانصرف، ثم جاء جندي من تغلب وأخذ يصلي في المكان المحدد فجاء صاحب المال، وظن أنه رسول بن وألان فترك المال بجواره وانصرف، فلما فرغ الجندي من صلاته رأى المال

فأخذه إلى منزله.

ومرت عدة أيام ثم جاء صاحب المال إلى ابن وألان وقال له:

أعطني شيئًا من مالي..

فقال ابن وألان مندهشًا:

أيّ مال؟ لم آخذ منك شيئًا..

فقال الرجل في حدة:

بل أخذته.

فقال ابن وألان:

لم آخذ منك شيئًا..

فذهب الرجل يشكو ابن وألان لدى قتيبة، وشاع الأمر بين الجند، فتوقع الجندي الذي أخذ المال أن يكون هذا المال هو مال القائد، ولكنه فقير والمال يبلغ خمسمائة ألف درهم أي: نصف مليون.

ولكن حبه لله وللدار الآخرة كان أعظم من حبه للمال..

فانطلق الجندي من فوره إلى صاحب المال يقول له:

ما مقدار مالك؟

خمسمائة ألف درهم..

وما علامته؟

عليه خاتم أزرق.

فأخرج الجندي المال ودفعه إلى صاحبه قائلاً:

هذا مالك كما هو لم تحلّ عقدته..

وأراد صاحب المال أن يكافئه فرفض الجندي في إباء قائلاً:

إنما أطلب الجزاء من الله.

على أبواب بخارى

بعد أن فرغ قتيبة من فتح بيكند سار في طريقه إلى بخارى ففتح مدن: نسف، وكش، وشومان، حتى أصبح على أبواب بخارى، وحاصرها سنة (٩٠هـ)، واستعصت عليه المدينة فقد كانت من أهم مدن مملكة الصغد..

وأرسل قتيبة إلى الحجاج يخبره بأن بخارى حصينة منيعة ولا يدري من أين يدخلها.. فكتب إليه الحجاج يقول:

أرسل لي صورة البلد..

فرسم قتيبة خريطة واضحة لبخارى وأرسلها للحجاج، فلما رآها وضع علامة على مكان بالخريطة وردَّ الرسالة إلى قتيبة وقد كتب عليها:

ادخل المدينة من هذا الجانب..

* * *

واقتحم قتيبة أسوار المدينة دون جدوى، فقد تجمع جيش جرار هاجم جيش قتيبة، وأصابوا منه، وسقط عدد كبير من المسلمين، ورغم هذا ثبت قتيبة وجيش المسلمين في المعركة.. وأصبح قتيبة يسأل بين الجند عن محمد بن واسع[١].

---

(١) كان محمد بن واسع رجلاً صالحًا يصحب قتيبة في الغزوات.

وعجب قادة الجيش وسألوا قتيبة:

لماذا تسأل عن محمد بن واسع في هذا الموقف الصعب.؟

فقال قتيبة:

وأين هو؟..

قالوا:

هناك يدعو الله ويشير بإصبعه إلى السماء..

فقال قتيبة:

لهذا الإصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير، ثم نادى في الجند وكله ثقة في نصر الله:

جاء النصر .. من يبايع على الموت؟ من يبيع نفسه لله..؟

فتقدم منه عدد كبير من الجند، فاختار منهم ثمانمائة جندي بايعوا على الموت، واقتحم بهم أسوار المدينة وفتح أبوابها لبقية الجيش، ودارت معركة من أشد معارك الفتح الإسلامي، حتى تم فتح بخارى للمسلمين..

وأصبحت بخارى من مراكز الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر، وقد اتخذها قتيبة منطلقاً لفتوحه في بقية تلك البلاد.

ومن نتائج فتح بخارى أن سعى ملك الصغد إلى الصلح مع المسلمين، غير أنه سرعان ما كان ينقض المعاهدات، مما جعل قتيبة يزحف نحو سمرقند عاصمة مملكة الصغد . .

فتح سمرقند

كانت سمرقند عاصمة مملكة الصغد وهي من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر؛ ولذلك اهتم بها ملكها وحصَّنها، وكانت قصة فتح سمرقند من أدلة عظمة الحضارة الإسلامية التي هي حضارة العدل واحترام الإنسان مهما كان الأمر، وإليكم القصة من البداية..

حاصر قتيبة بن مسلم سمرقند، وشدد عليها الحصار حتى خرج إليه واحد من أهلها، وأعلن استسلام المدينة وفتح للمسلمين باباً دخلوا منه، وفوجئ أهل المدينة بجيش المسلمين وقد انتشر في المدينة وملكها.

وتوالت الأيام والشهور، وكان قتيبة قد مات، وولي الخلافة عمر بن عبدالعزيز فكتب إليه أهل سمرقند يشكون أن مدينتهم فُتحت غدراً، وذلك أن الرجل الذي أعلن الاستسلام وفتح جانباً من سور المدينة للمسلمين شخص عادي ليس من قادة أو زعماء المدينة، وكان على المسلمين أن يدركوا ذلك قبل أن يدخلوا المدينة ويفاجئوا أهلها..

ومن عجائب العدل الإسلامي أن عقد القاضي جلسة للحكم في هذه القضية، واستمع إلى المدعي والمدعى عليه، ثم أصدر حكمه الذي دوَّنه التاريخ بأحرف من نور:

حكم القاضي: ببطلان الفتح لأنه كان غدراً، ولأنه خالف قواعد الإسلام في الحروب.. وحكم القاضي بخروج الجيش الإسلامي منها، وإعطائها مهلة للاستعداد ثم إعلان الحرب من جديد..

ونفذ هذا الحكم الغريب، وبدأ الجيش في الانسحاب، غير أن أهل سمرقند تمسكوا بالمسلمين، وطلبوا طواعية واختياراً أن يبقوا تحت راية الإسلام.

فتح ودعوة

لم يكن قتيبة يكتفي بمجرد الفتح العسكري للبلاد التي يغزوها، بل كان يضع الدعوة إلى الله الهدف الأول، فكان يدعو أهل المدن المفتوحة إلى الإسلام.

وذات يوم دعا قتيبة بعض الترك إلى ترك عبادة الأصنام وتحطيمها، فقالوا له مذعورين:

لا يجرؤ أحد على مسها بسوء وإلا حلت عليه لعنة الآلهة..

وتحداهم قتيبة فحمل معوله وقام بتحطيم الأصنام أمام عيونهم وهم ينظرون إليه مشفقين مما سيحل عليه من غضب الآلهة المزعومة..

وبعد أن انتهى قتيبة من عمله وقف أمامهم فاتحًا ذراعيه وهو يقول:

ها أنذا قد حطمت هذه الحجارة التي لا تنفع ولا تضر ولم يحدث لي شيء، ولم يصبني أي أذى..

ونظروا إليه فأيقنوا صدق كلامه، وكان من نتيجة ذلك أن دخل أهل البلاد المفتوحة في دين الله أفواجًا.

واهتم قتيبة كذلك ببناء المساجد، وتوفير الدعاة الذين يعلِّمون الناس الإسلام.. ويدعونهم إليه..

حفنة من تراب الصين

جلس طفل صيني مسلم إلى جوار جده فرآه يقلب بعض التراب بين يديه فسأله:

ماذا تفعل يا جدي؟..

فأجابه وهو يقلب التراب:

هذه حفنة غالية من تراب الصين..

فقال الطفل:

وماذا تعني؟ إنها مجرد حفنة تراب!!

فقال الجدّ وقد نفض يديه من التراب ونظر إلى الأفق:

لقد وطئ هذا التراب أجدادك المسلمون منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان..

فسأل الحفيد:

وما قصة ذلك يا جدي..؟

فقال الجد:

كان ذلك يا ولدي في سنة (٩٦هـ) عندما وقف القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي على حدود الصين، وأرسل وفداً من جيشه برئاسة هبيرة بن المشمر إلى ملك الصين، فتقدم وفد المسلمين من الملك الذي بادر بقوله:

ما جاء بكم إلى بلادنا؟.

فقال رئيس الوفد وهو يشير بأصابعه الثلاثة الوسطى:

جئنا نعرض عليك أمراً من ثلاث: إما أن تدخل في دين الله الإسلام، وإما أن تدفع الجزية، وإما أن يكون بيننا وبينك السيف..

فغضب الملك وثار وقال لهبيرة في كبر:

اذهب إلى صاحبك[١] فقل له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه.. وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه..

فتقدم هبيرة من الملك وقال بكل ثقة وقوة:

كيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا وهو قادر عليها وغزاك؟..

وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟

(١) يقصد: قتيبة.

وهمَّ الملك بالكلام ولكن هبيرة قاطعه قائلاً:

لا تخوفنا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل في سبيل الله، ولسنا نكرهه ولا نخافه..

صمت ملك الصين ثم نظر إلى مستشاريه فهزوا رؤوسهم كأنهم يوافقون على أمر ما.. ثم تكلم الملك في هدوء قائلاً:

وما الذي يرضي صاحبكم؟..

فأجابه هبيرة:

إنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية..

وكان ختم الملوك علامة السيطرة، فقال ملك الصين:

إنا نخرجه من يمينه فلا يحنث..

ثم أشار الملك بيديه فحضر ثلاثة من أبنائه.. ثم أمر الملك فجاؤوا بحفنة من التراب وضعت على وسادة من حرير..

ثم قال الملك لهبيرة:

ها هم ثلاثة من أبنائي ومن أمراء الصين، خذهم لقائدكم قتيبة ليختم

عليهم، وها هي حفنة من تراب الصين خذها معك فيطؤها..

وانطلق وفد المسلمين إلى القائد قتيبة بن مسلم يحملون ما أمر به ملك الصين..

وفي مشهد مهيب تقدم قتيبة بن مسلم فوطئ بقدمه تراب الصين وفرض على ملكها الجزية..

* * *

ولولا أن المنية وافته ما تردّد قتيبة في فتح بلاد الصين ونشر الإسلام فيها..

جزاء الخائن

فوجئ قتيبة بأحد رجاله الذين بثهم ليكونوا عيونه على العدو، يدخل عليه قائلاً:

أخْلني..

فقال قتيبة:

تكلم يا رجل، لا يوجد هنا سوى أحد قادة الجيش..

فقال الرجل متردداً وهو يهمس:

إنَّ العدو كثير..

فقال قتيبة مندهشاً:

وماذا في ذلك من جديد؟ فكل الأعداء الذين لقيناهم كانوا أكثر منا عدداً..

فقال الرجل:

ولكنك لا تعلم أن الحجاج قد عزلك، وبعث آخر في مكانك وأنا أرى أن تنسحب بالجيش..

فعرف قتيبة أن هذا الرجل قد خان المسلمين، وأنه يعمل لصالح العدو؛ فقال له:

أما كثرة العدو.. ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾.

وأما عزلي فأنا أقاتل لله لا للحجاج..

وأما أنت فقد خنت..

ثم أخرج قتيبة سيفه ووضعه على رقبة الخائن حتى اعترف بخيانته، فقتله وهو يردد:

هذا جزاء الخائن..!!

نهاية بطل

شهد عام (٩٦هـ) آخر فتوح قتيبة بن مسلم في بلاد المشرق، ففي هذا العام فتح مدينة كاشغر في تركستان الشرقية، وبهذا أصبحت المنطقة التي يسيطر عليها قتيبة واسعة مترامية الأطراف.. تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب الخزر، ثم تمتد شمالاً لتتعمق في آسيا الوسطى في بلاد ما وراء النهر، وتصل شرقًا حتى أواسط تركستان الشرقية..

وقد قدرت المساحة الكلية لهذه البلاد بما يقارب أربعة ملايين كيلو متر مربع..

* * *

كان قتيبة واليًا على خراسان من قبل الوليد بن عبدالملك، وقد اتخذ من مدينة مرو قاعدة لحكمه..

ونجح قتيبة في تنظيم الشؤون الإدارية للبلاد نجاحًا عظيمًا، فدوَّن الدواوين، وأنشأ نظمًا مالية واقتصادية متميزة شهد بها أعداء الإسلام عندما عايشوا عن قرب أسلوب قتيبة ونظامه في إدارة البلاد..

وظل قتيبة في منصبه وقد اكتسب حب أهل البلاد وتقديرهم حتى

جاء عام (٩٦هـ) وتوفي الوليد بن عبدالملك، وتولَّى مكانه أخوه سليمان بن عبدالملك، وقد انزعج قتيبة لذلك؛ فسليمان يكره قتيبة لأمرين:

الأول: أن قتيبة ممن أيدوا عزل سليمان عن ولاية العهد عندما أراد الوليد ذلك.

والثاني: أن قتيبة واحد من رجال الحجاج بن يوسف، وسليمان يكره الحجاج وكل من يمت إليه بصلة..

وهكذا وقع قتيبة في حيرة من أمره، وحار ماذا يفعل في هذا الأمر الذي تسبب في وقف الغزو والفتوح، وجمع أهل عائلته من باهلة يستشيرهم في الأمر..

فقال أحدهم:

لا تظن بسليمان سوءاً فإنه سيقدر جهادك ودورك في توسيع رقعة الدولة ونشر الإسلام..

وقال آخر:

كن حذراً وحسب، حتى لا يقع ما لا يُحمد عقباه..

وتحدث آخرون غير أن قتيبة استحسن الرأي الأول وعقب عليه قائلاً:

سأرسل رسالة إلى سليمان أذكره بما قلتم فإن استبقاني فبها ونعمت، وإن عزلني خرجت عليه مستقلاً بما تحت يدي من أراضٍ وبلاد..

وأرسل قتيبة رسالة يعزيه فيها بالوليد، ويهنئه بالخلافة التي آلت إليه، وذكره بالفتوح التي تمت على يديه، وطلب منه قتيبة أن يبقيه أميراً وله السمع والطاعة.. وإن لم يفعل فإنه سيخلعه..

ورغب سليمان في رأب الصدع، وفتح صفحة جديدة فرد على رسالة قتيبة بأنه يوليه خراسان ويبقيه أميرًا عليها غير أن رسول سليمان تأخر في الوصول إلى قتيبة..

فظن أن سليمان ينوي به سوءاً، وأغراه بعض من حوله بالخروج على الخليفة، فأعلن الخروج والاستقلال بما تحت يده، غير أن زعماء القبائل العربية رفضوا هذا الأمر، وثار ضده الجند، وقام أحدهم ويدعى وكيع بن أبي سود فقتله..

وهكذا كانت نهاية فاتح المشرق.. أحد فرسان الإسلام العظام.. غفر الله له ورحمه رحمة واسعة!!

رثاء قتيبة

وبعد مقتل قتيبة حزن عليه كثيراً أهل المشرق، ورثاه كثير منهم، وقال واحد من العجم لما سمع خبر مقتله:

يا معشر العرب، والله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا..

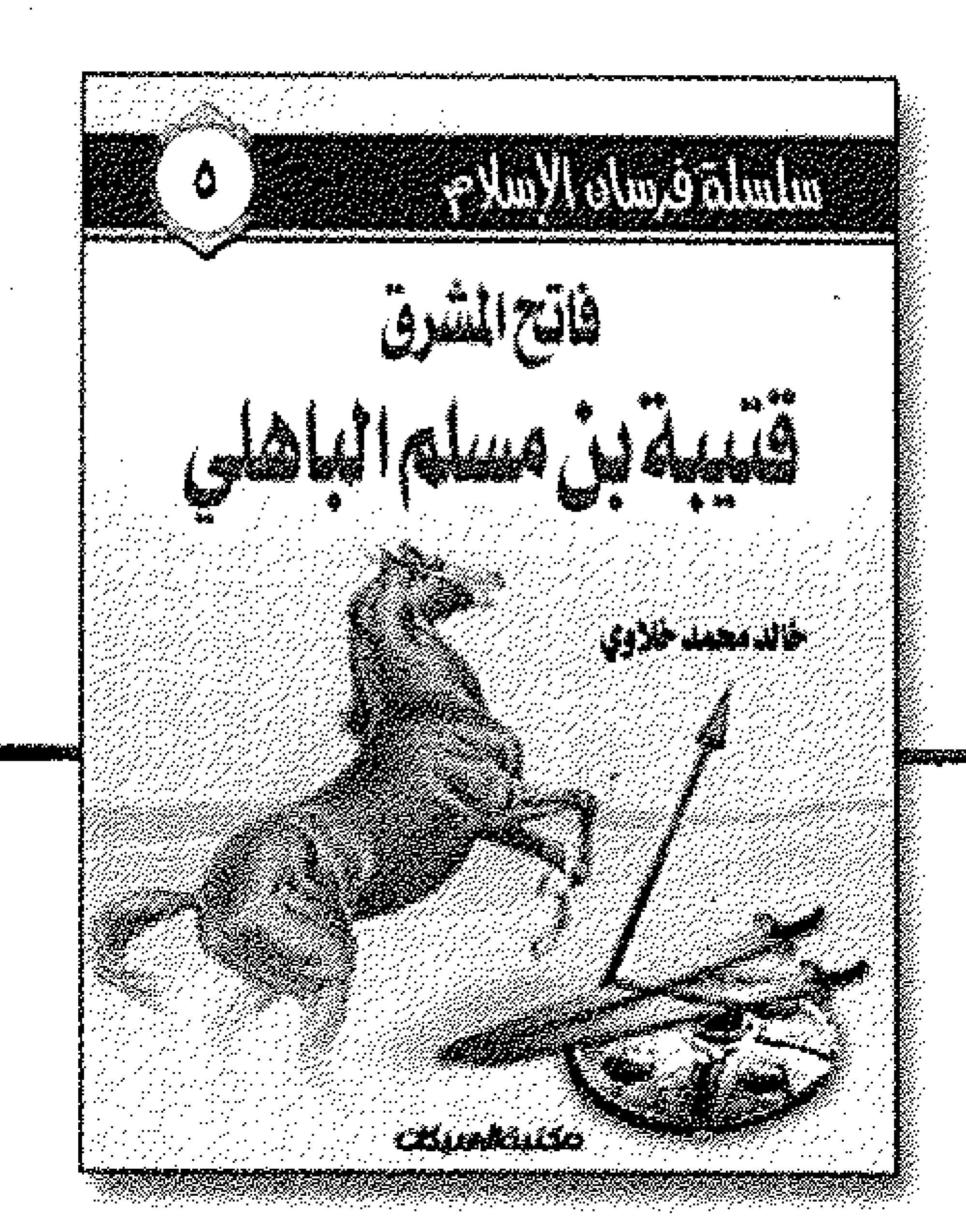
وقال الشاعر جرير في رثاء قتيبة:

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم
وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه في غنيمة
وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور جنةٍ
وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

* * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة

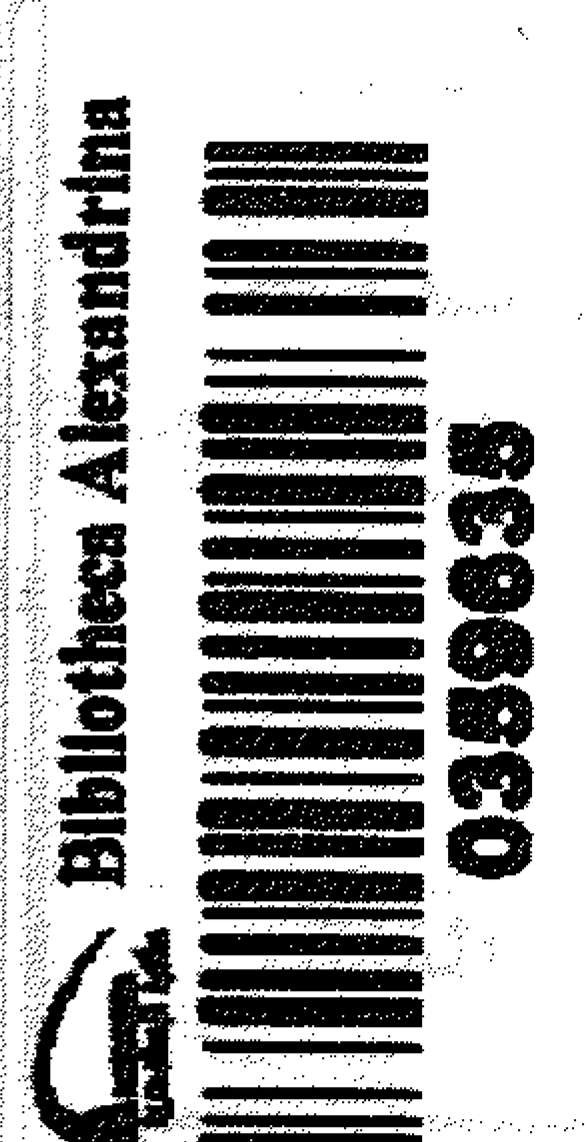


تاريخ الإسلام مليء بالصفحات المشرقة لقادة عظام لجيوش المسلمين التي فتحت البلاد، ونشرت دين الله في أصقاع المعمورة، وعلى شبابنا أن يجعل نصب عينيه هؤلاء القادة كنماذج بشرية راقية؛ ليقتبسوا منهم مزايا وصفات رائعة تجعلهم أبناء صالحين لخير أمة أخرجت للناس.

وتقدم هذه السلسلة مجموعة من فرسان الإسلام في عصور مختلفة من تاريخ أمتنا، وكلهم سائرون على درب الجهاد في سبيل الله.

ومكتبة العبيكان حريصة على نشر هذه السلسلة
أيدي أبنائنا هذه النماذج المضيئة ليكونوا مثله
للإسلام وإعزازاً لأمتهم.

هذا والله من وراء القصد



ردمك: ٩٩٦٠-٢٠-٩٢٨-٨
7000326

